البَابُ الثالث

الكناية

الكنايـــة

الكناية فن من فنون البلاغة ، ووسيلة قادرة من وسائل البيان ، ولمسة ساحرة من لمسات الأسلوب ، وهى على الرغم من ولوغها فى الستر والإخفاء : أدل على المعنى من الكلام الصريح ، وأكثر إبانة للمراد من الرمز والتلويح ، وبخاصة عندما يتلقاها أهل النظر والاستنباط ، ويتذوقها أولو الحذق والمهارة .. إنها حين ذاك : تمتع النفس ، وتبهج الخاطر ، وتسعد القلب ، وتؤنس الوجدان ، وتقدح زناد الفكر ، وتداعب – على استحياء – قدرات العقل .

تطور مدلول الكناية :

والكناية فى مدلولها الاصطلاحى ، وإلى أن انتهت إليه : قد مرت بأطوار استعمالية ، تناولها – فى كتاباتهم – أئمة اللغة ، وأساطين البلاغة : فقد كان « سيبويه » (ت ١٨٠هـ) : أول من تحدث عن الكناية ، حيث قال : « تقول العرب : يافلُ ، وإنما بنى على حرفين ، ولم يجز فى غير النداء ، لأنه إذا جُعل اسما ، لا يكون إلا كناية لمنادى ، وأما « فلان » فإنما هو كناية عن اسم سمى به المحدث عنه ، وقد اضطر الشاعر ، فبناه على حرفين فى هذا المعنى ، قال أبو النجم :

فى لجة أمسك فلانا عن فل[1] .

فـ « فلان » و « فل » كناية عن شخص مجهول » ..

ومن هذا نرى : أن سيبويه قصد من الكناية : معنى الستر والإخفاء ..

ثم جاء أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٧هـ) : فأراد من الكناية كلَّ

(١) الكتاب ١/ ٣٣٣ .

ما يفهم من الكلام ، دون أن يصرح باسمه الدال عليه ، وأورد فى ذلك بعض الشواهد ، من مثل قوله تعالى : ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ .. (ص : ٣٢)

وقوله تعالى : ﴿كلا إذا بلغت التراقى﴾ .. (القيامة : ٢٦) ..

وقوله تعالى : ﴿كل من عليها فان ...﴾ .. (الرحمن : ٢٦) ..

ثم ذكر : أن الله كنى فى الأولى عن الشمس ، وفى الثانية عن الروح ، وفى الثالثة عن الأرض ، من غير أن أجرى ذكرها ، كما قال حاتم الطائى :

أماوىّ مـا يغنى الـثراء عن الفـتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يعنى : حشرجت النفس ...

فاللفظ الصريح الموضوع للمعنى : مستور ومختف وراء هذا اللفظ ، الذى كنى به عنه ..[1] .

وتخطو الكناية خطوات أوسع ، فى كتابات المبرد (٢٨٥ هـ) : حيث قسم الكلام إلى ضروب ، وعدّ الكناية واحدا منها ، ثم نوعها على ثلاثة أنواع :

١ – التعمية والتغطية ، كقول النابغة الجعدى :

أكنى بغير اسمها وقد علم اللـ ـه خفيّـات كـلّ مكتَتِم

٢ – الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى غيره ، مما يدل على معناه ، كقوله تعالى:

﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ .. (البقرة : ١٨٧) ..

٣ – التفخيم والتعظيم ، ومنه اشتقت الكنية ، وإنما يقال : كنى بكذا عن كذا ، أى ترك كذا إلى كذا .

وفى تقسيم المبرد هذا : بيان لما تؤديه الكناية من فائدة فى صناعة الكلام ..

---

(١) البيان العربى ص ١١٣ .

وواضح من كلام المبرد : أنه لم يسق تعريفا للكناية ، يحدّد به معالمها ، وعلى الرغم من ذلك : فإن جهده واضح ظاهر ، فى تقريبها للأذهان ..

وإذا أتينا إلى أبى هلال العسكرى (ت ٣٩٥)هـ : وجدناه يتحدث عن الكناية ، بعنوان (الكناية والتعريض) ، ثم عرفها بقوله : « وهى أن يكنى عن الشىء ، ويعرض به ، ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشىء » .. وفى كتاب الله عز وجل : ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء﴾ .. (المائدة : ٦) .. فالغائط كناية عن الحاجة ، وملامسة النساء : كناية عن الجماع ..

ثم أورد أبو هلال – بعد ذلك – أمثلة ، تزاحمت فيها الكناية ، والتعريض والإرداف ، من ذلك قوله تعالى : ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ .. (الرحمن :٥٦) .. فقد قال : « وقصور الطرف فى الأصل : موضوعه العفاف ، على جهة التوابع والإرداف »[١] .

وأورد العسكرى – أيضا – قول عمر بن أبى ربيعة :

بعيدة مهوى القـرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ثم قال : « فإنه أراد أن يصف عنقها ، فأتى بمادل عليه من طول مهوى القرط ، وبعد مهوى القرط ردف لطول العنق »[٢] .

وظاهر أن الكناية لم تتضح معالمها لدى أبى هلال ، بدليل الخلط بينها وبين الإرداف والتعريض .

ثم يجىء دور ابن رشيق (ت ٤٦٣هـ) ، فنجده يتناول الكناية تحت مسمّى جديد هو « الإشارة » ، وقد جعلها إطارا عاما ، تشمل : الوحى ، والإيماء ، والتفخيم ، والتعريض ، والتلويح ، والرمز ، واللغز ، واللحن ، والتورية » ..

---

(١) الصناعتين ص ٢٧٥ .
(٢) المرجع السابق .

ثم نجده يورد أمثلة لكل ذلك .. ونلمح أن الكناية – من منظور ابن رشيق – قد أصبح مجالها واسعا ، وأكثر صورًا وألوانا ، عمن سبقوه ، لأنها إذا كانت قائمة على ستر المعنى وإخفائه ، وراء لفظ آخر ، فيندرج تحت هذا المفهوم : كل ما كان بهذه الصورة ، وإن اختلفت المسميات ..

وتظل الكناية ترقى وتتطور ، وتنتقل من درب إلى درب : حتى ظهر فى سماء البلاغة العربية : الإمام أبو يعقوب السكاكى (ت ٦٢٦هـ) ، الذى وضع لعلم البلاغة قواعده وأصوله ، وأحكامه وقوانينه ، حيث أخذت البلاغة – على يديه – اللمسات الأخيرة ، بعد أن تماثلت فى بنيانها الشاهق ، وحصنها السامق ، فلقد نوعها إلى أقسامها الثلاثة ، المتعالمة المشهورة : البيان ، والمعانى ، والبديع ..

ثم ألقينا « السكاكى » : يسوق للكناية تعريفا ، اقتفى أثره من جاء بعده :

يقول فى تعريف الكناية : « وهى ترك التصريح بذكر الشىء إلى ذكر ما هو ملزومه ، لينتقل من المذكور إلى المتروك ، كما تقول : « زيد طويل النجاد » ، فينتقل منه إلى ما هو ملزومه ، وهو طول القامة »[1] ..

ثم قسمها إلى أقسامها الاصطلاحية المعروفة الثلاثة :

١ – كناية عن صفة

٢ – كناية عن موصوف

٣ – كناية عن نسبة ..

تلك لمحة سريعة عن الكناية ، وتطورها فى مدلولها الاصطلاحى ، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه ، فلقد غدت صورة مشرقة وضيئة ، من علم البيان ، تسرى فى الكلام ، وتنبىء عن المعنى ، وتقيم الدليل على صحة الدعوى ..

فماذا عن الكناية ؟ وماذا عن معناها وصورها ؟ وماذا عن قيمتها الفنية فى الأساليب ؟ إليك البيان !!

---

(١) المفتاح ص ١٨٩ .

معنى الكناية

أولا : فى اللغة :

هى مصدر كنى به عن كذا يكنى ، ويكنو كناية : تكلم بما يستدل به عليه ، أو تكلم بشىء وهو يريد غيره ، ففى الفعل لغتان : الأولى : كنى يكنى ، كرمى يرمى ، وشاهدها قول الشاعر :

وقد أرسلت فى السر أن قد فضحتنى وقد بحت باسمى فى النسيب وماتكنى

والثانية : كنى يكنو كيدعو ، وشاهدها قول الآخر :

وإنى لأكنو عن قذور بغيرها وأعرب أحيانـابها فأصارح

و « قذور » : اسم امرأة ..

ثانيا : فى الاصطلاح :

دار شدّ وجذب بين العلماء ، وهم يعرضون للكناية ، فى معناها الاصطلاحى ، وكان اختلافهم ناشئا من تساؤل ، هو : هل الكناية من قبيل الحقيقة ؟ أو من قبيل المجاز ؟

هناك رأيان : أحدهما : لعبد القاهر الجرجانى ، وثانيهما : للقزوينى .

مذهب الإمام عبد القاهر :

تناول إمام البلاغة ، عبد القاهر الجرجانى ، الكناية ، وتحدث عنها حديثا مشرقا ، بأسلوبه المتين ، وقلمه الرصين ، ومن خلال ما كتبه ، ندرك أنه يميل إلى جعل الكناية من قبيل الحقيقة ، وذلك لأنه يقول فى التعريف بها : « والمراد بالكناية : أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره بلفظه الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فيومئ به

إليه ، ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولهم : « هو طويل النجاد » ، يريدون : طول القامة ، و « كثير رماد القدر » ، يعنون : كثير القرى ، وفى المرأة : « نؤوم الضحى » ، والمراد أنها : مترفة مخدومة ، لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا فى هذا كله معنى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر، من شأنه أن يردفه فى الوجود ، وأن يكون إذا كان ، أفلا ترى أن القامة إذا طالت: طال النجاد ؟ وإذا كثر القرى : كثر رماد القدر ؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يخدمها : « ردف ذلك أن تنام إلى الضحى ؟ »[1] ..

وواضح من كلام عبد القاهر : أن كل أسلوب من أساليب الكناية : له معنى متبوع ، وهو المعنى الكنائى المراد ، كطول القامة مثلا ، فى قولهم : « هو طويل النجاد » ، والمعنى المتبوع لم يذكر لفظه .. ومعنى تابع ، وهو وإن ذكر لفظه : لكنه لا يقصد لذاته ، بل ليكون وسيلة ورمزا إلى متبوعه ، فطول النجاد يتوصل منه إلى طول القامة ، والمعنى الكنائى – عند عبد القاهر – هو المتبوع ، والمعنى الحقيقى هو التابع ..

فالكناية عند عبد القاهر : حقيقة ، لأن الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له ، سواء أكان ما وضع له مقصودا لذاته ، أم مقصودا لينتقل منه إلى غيره ، والكناية من النوع الثانى ، أى أنها لفظ مستعمل فيما وضع له ، لينتقل منه إلى غيره ، بحيث يكون غير الموضوع له ، هو متعلق الإثبات والنفى ، ومرجع الصدق والكذب ، ومن هنا تخرج الكناية عن دائرة المجاز !! !

مذهب الخطيب القزوينى :

أما الخطيب القزوينى : فهو يرى أن الكناية واسطة بين الحقيقة والمجاز ، يظهر ذلك من ثنايا تعريفه لها ، وذلك حيث يقول : « هى اللفظ الذى يراد به لازم معناه ، مع جواز إرادة ذلك المعنى .. » ..

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٦٦ .

وإيضاح ذلك : أن المتكلم قد يريد إفادة معنى من المعانى ، فلا يذكره بلفظه الصريح الذى وضع له فى أصل اللغة ، بل يتوصل إليه بذكر لفظ يدل على معنى من شأنه أن يكون متبوعا فى التعقل والفهم للمعنى المراد .. فالمعنى المتبوع هو المعنى الحقيقى للفظ ، والمعنى التابع هو المعنى الكنائى المراد من اللفظ ، وهو المقصود بالإفادة ، وبه يتعلق الإثبات والنفى ، وإليه يرجع الصدق والكذب ..

وعلى ذلك : فالمراد باللزوم بين المعنى الحقيقى ، وهو المعنى المتبوع ، وبين المعنى الكنائى ، وهو التابع : هو مطلق الارتباط بينهما ، ولو كان لعرف عام ، أو خاص ، أو لقرائن حالية ..

من أجل ما سبق : كانت الكناية – فى تصور الخطيب – واسطة بين المجاز والحقيقة ، لأن قوله فى تحديدها : « يرادبه لازم معناه » : مخرج للحقيقة ، لأن اللفظ هنا لم يستعمل فى معناه الحقيقى ، بل أريد به لازم المعنى الحقيقى .. وقوله : « مع جواز إرادة ذلك المعنى » : مخرج للمجاز ، لأن المجاز لا يصح فيه إرادة المعنى الحقيقى ، لأن قرينته تمنع من ذلك .. أما قرينة الكناية فهى مجوزة لإرادة المعنى الحقيقى .. ومن ثم كان على المتكلم بأسلوب الكناية : أن يأتى بقرينة ، تدل على المعنى الكنائى المراد ..

ويبدو – من خلال ما تقدم – أن مذهب الخطيب القزوينى : هو الأوفق والأدق ، لمطابقته للأساليب العربية ..

أمثلة للكناية

١ – قال تعالى : ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ..﴾ .. (الفرقان : ٢٧) .. لو تأملنا فى الآية الكريمة : لوجدنا أن المقصود منها إبراز مدى التحسر والندم ، الذى يعانى منه الظالمون ، وبخاصة عندما يرون مصيرهم الرعيب يوم القيامة ، فيندمون على ما بدر منهم فى الدنيا .. ونلحظ أن السياق عبر عن هذا المعنى بقوله ﴿يعض الظالم على يديه﴾ ، فهو تعبير لايراد لذاته ، وإنما يراد منه لازمه ، وهذا هو مفهوم الكناية .. والعلاقة بين الندم والعض على اليدين : أن المتحسر – غالبا – ما يعض على إصبعه ، وأن الندم صار لازما من لوازم العض على الأصابع ..

٢ – وقال تعالى : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ..﴾ .. (الإسراء : ٢٩) ..

فغلّ (ربط) اليد إلى العنق : كناية عن البخل ، لأن الإنسان بذلك ، يفقد القدرة على الإعطاء .. وفى التعبير تصوير محسوس ومنفر ، لصفة ذميمة قبيحة ، هى صفة البخل .. وبسط اليد : كناية عن الإسراف والتبذير ، وفيها إبراز للمعنى فى صورة ملموسة ، تجعله قويا مؤثرا ..

٣ – وقال تعالى : ﴿ما المسيح بن مريم إلا رسول قدخلت من قبله الرسل وأمه صديقه كانا يأكلان الطعام ..﴾ .. (المائدة : ٧٥) .. فالسياق الشريف أراد أن يصور عملية « التغوط والتبول » ، والتى كان يقوم بها كل من سيدنا عيسى وأمه ، فكنى عن ذلك بقوله : « كانا يأكلان الطعام » ، ولا شك أن التغوط والتبول من الأمور المستهجنة ، التى لا يحمد ذكرها ، ولذا فقد عبر القرآن عنها بهذا الأسلوب الكنائى الجميل : « يأكلان الطعام » .. وفى الآية

لفتة بارعة إلى غباء من ألّه عيسى وأمه ، لأنهما لو كانا إلهين : لما تعرضا لما تحدثت عنه الآية ، لأن الإله الحق يتنزه عن ذلك ..

٤ – وقال تعالى : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ .. (البقرة : ١٨٧) وكلمة « الرفث » فى مدلولها اللغوى : تعنى الحديث عن مباشرة النساء ، والدواعى التى تسبق ذلك ، وتمهّد له .. ولما كان هذا المعنى مما يقبح التصريح باسمه الدال عليه : فقد اكتفى السياق بأن يرمز إليه ، ويكنى عنه بتلك الكناية اللطيفة « الرفث » ، فأطلق « الرفث » ، وأراد لازم معناه ، وهو « الجماع » ، لأنه كان محظورا على المسلم الصائم ، إذا هو نام بعد المغرب : أن يغشى زوجة أو يجامعها إلى اليوم التالى ، فوقع الصحابة – رضى الله عنهم جميعا – فى حرج شديد بسبب ذلك ، ومن ثم ، خفف الله عنهم وعافاهم ، بهذه الآية الراشدة ، التى جعلت هذا الأمر فى متناول أيديهم ، حتى مطلع الفجر ، فقرت بذلك أعينهم ، واطمأنت نفوسهم ...

٥ – وقال المرقش الأكبر :

شعث مفارقنا تغلى مراجلنا نأسو بأموالنا آثار أيدينا[1]

.. فقد كنى الشاعر بقوله : « شعث مفارقنا » عن الخشونة ، والقدرة على خوض المعارك ، وبقوله : « تغلى مراجلنا » : عن الكرم والضيافة ، وبقوله : « نأسو بأموالنا آثار أيدينا » عن المنعة والحماية .. وهى كنايات – كما يبدو – صورت المعنى أدق تصوير ، وأقامت البرهان على صدقه وصحته ، فلم يُرد من الأساليب فيها : معانيها الظاهرة ، بل قصد من كل منها : لازم معناه .. وهذا هو مفهوم الكناية !! !

٦ – وقال الشاعر « إيليا أبو ماضى » :

---

(١) شعث : مغبّرة ، مفارقنا : رءوسنا ، مراجلنا : جمع مرجل وهو القدر ، نأسو : نداوى ..

إن شر النفوس فى الأرض نفس تتمنى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك فى الورود وتعمى أن ترى فوقها الندى إكليلا

فى البيت الثانى : معنى كنائى بديع ، لأن الشاعر يريد أن يتحدث عن الشؤم ماثلا فى رجل لا يرى فى الورود إلا الشوك : « وترى الشوك فى الورود وتعمى ... » ، ولا أن الذى ينظر إلى الورود فيبصر شوكه ، ولا يتملى فيه قطرات الندى التى تزينه ، هو امرؤ ينظر إلى الدنيا من منظور أسود قاتم ، فقد أُريد من التعبير لازم معناه .

٧ – وقال رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره لرجل يقال له : « أنجشة » : « رويدك أنجشة : سوقك بالقوارير .. » ..

فهذه كناية لطيفة بارعة ، من سيد البلغاء وإمام الفصحاء – صلوات الله وتحياته وبركاته عليه – حيث كنى عن النساء : بالقوارير ، وإنما عبّر مولانا أبو القاسم محمد – ﷺ – عن النساء بالقوارير : لنكات ثلاث :

أولا : لما هن عليه من حفظ الأجنة ، والوعاء كالقارورة تحفظ ما فيها ..

ثانيا : لاختصاصهن بالصفاء والصقالة والحسن والنضارة .

ثالثا : لما فيهن من الرقة والمسارعة إلى التغير والانثلام ، كما يتسارع الانثلام إلى القارورة لرقتها[1] ..

٨ – وقال رسول الله : « الخيل معقود بنواصيها الخير .. » .. فانظر إلى هذه الكناية البالغة حد الروعة ، حيث نسب النبى الكريم الخير إلى نواصى الخيل ، ولم ينسبه إليها مباشرة ، وفى هذا وصف للخيلية بالخيرية ، بالطريق البليغ ، لأنه إذا ثبتت الخيرية للنواصى : فلأن تثبت للخيل ذاتها من باب أولى .

---

(١) الطراز ١/٤٠٧ .

أنواع الكناية

المتتبع للأساليب التى تجرى فيها الكناية ، وللمعانى المتوخاة منها ، والأغراض المنوطة بها : يلفت نظره أن المعنى الكنائى الذى يدور حوله الأسلوب ، لا يخرج عن واحد من ثلاثة :

الأول : أن يكون صفة ، ويراد بها المعنى القائم بالغير ، كالشجاعة ، والجبن ، والكرم ، والبخل ، والذكاء ، والغباء ، وغير ذلك من الصفات التى تتلبّس بالموصوف أيا كان ، فلا يراد بالصفة — هنا — النعت النحوى ..

الثانى : أن يكون نسبة بين شيئين ، والمراد بالنسبة : إثبات أمر لأمر ، أو نفيه عنه ..

الثالث : أن يكون غير صفة ولا نسبة ..

النوع الأول : الكناية المراد بها صفة :

والسمة المميزة لهذا النوع : أن يصرح بالموصوف ، وبالنسبة إليه ، وتُتناسى الصفة المراد إثباتها ، على أن يذكر فى السياق صفة أخرى ، ترشد إليها ، وتدل عليها ..

انظر إلى قول إبراهيم بن هرمة :

لا أمتـع العــوذ بالفصـال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل[1]

فالبيت يشتمل على كنايتين :

١ — قوله : « لا أمتع العوذ بالفصال » .. كناية عن الكرم .

---

(١) العوذ بضم العين : جمع عائذ ، وهى الناقة الحديثة النتاج . الفصال : جمع فصيل وهو ولد الناقة إذا فصل أى فطم ..

٢ – قوله : « ولا أبتاع إلا قريبة الأجل » .. كناية عن الكرم .

فالشاعر يريد أن يثبت : أنه كريم مضياف ، ثم ساق دليلا على هذا : أنه لا يمتع الناقة بولدها ، لأنه يذبحه ، أو يذبح أمه ، وكذلك : هو لا يشترى إلا الناقة التى دنا أجلها ، لأنها – أيضا – ستذبح ، أو ستُنحر عن قريب ..

وواضح أن الشاعر يريد أن ينعت نفسه بالكرم ، فى كلا التركيبين ، ولكنه لم يذكر الوصف بلفظه الدال عليه ، وإنما صرح فى السياق بصفة أخرى ، تدل على المعنى المراد ، وهو أنه لا يمتع النياق بأولادها ، لأنه يذبحها ، ويقدم لحومها طعاما للضيوف .. فالكناية – هنا – عن صفة ..

وقال الله عز شأنه : ﴿سنسمه على الخرطوم ..﴾ .. (القلم : ١٦) .. والمراد بالخرطوم : الأنف ، أى : سنسلط عليه من يضربه بالسيف على أنفه ، بحيث تترك فيها علامة ، تظل باقية لا يمحى أثرها ، وتكون له عارا وشنارا ، فالوسم على الخرطوم : كناية عن صفة المهانة والذلة التى تلحقه .. والمتحدث عنه فى الآية – والله أعلم – هو الوليد بن المغيرة ، وقد ضرب فى غزوة بدر الكبرى ، على أنفه بالسيف ، فبقيت سمة على خرطومه .

ولما كان الأنف رمز الشموخ والاستعلاء ، فإن الضرب عليه ذلة وصغار ، وتحقير وهوان ، وهذا ما يرومه السياق ، فالكناية – هنا – عن صفة .

وجاء فى صحيحى البخارى ومسلم ، عن عدى بن حاتم – رضى الله عنه – قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ..﴾ .. (البقرة : ١٨٧) .. عمدت إلى عقالين ، أحدهما أسود ، والآخر أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتى ، وجعلت أنظر إليهما ، فلما تبين لى الأبيض من الأسود ، أمسكت ، فلما أصبحت غدوت على رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – فأخبرته بالذى صنعت ، فقال : « أن كان وسادك لعريضا » ..

فالوساد العريض – فى قول النبى الكريم – كناية عن قلة فهمه ، لأن عرض الوساد – المخدة – يستلزم عرض القفا ، وعرض القفا يستلزم قلة الفهم ، ونقصان الذكاء ..

وقال الله – عز وجل – فى وصف شدائد وأهوال يوم القيامة : ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ..﴾ .. (القلم : ٤٢) .. فالكشف عن الساق يكون أصلا ، عند خوض الغمرات واللجج ، وطوامى المياه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير ..﴾ .. (النمل : ٤٤) .. ثم نقل هذا التعبير ، ليُستدل به على الروع والفزع ، ومكابدة الشدائد ، واقتحام الأهوال ، على سبيل الكناية ، وهى كناية عن صفة – كما نرى – .

النوع الثانى : الكناية المراد بها نسبة :

والمراد بالنسبة – كما أومأنا آنفا – إثبات أمر لأمر ، أو نفيه عنه .. وضابط هذا النوع : أن يُصرح بالموصوف وبالصفة ، ولا يُنص على النسبة بينهما ، ولكن تذكر مكانها نسبة أخرى تدل عليها ..

يقول جميل بن معمر يخاطب صاحبته بثينة :

أما تتقين الله فى جَنْب وامق ... لـه كبد حرّى عليك تقطع[1]

غريب مشوق مولـع بادكاركم ... وكل غريب الدار بالشوق مولع

فالمراد بالجنب هنا : الحق الواجب مراعاته ، وهو كناية عنه ، لأنه إذا أثبتنا الأمر للمكان أو الحيّز ، فقد أثبتناه للمكين من باب أولى ..

ومن ذلك قول زياد الأعجم :

إن السماحة والمـروءة والندى ... فى قبة ضربت على ابن الحشرج

---

(١) وامق : شديد الحب يعنى نفسه ، حرّى : محترقة .

فالكثيرون من ذوى اللسن والبيان ، والمتمهرين فى صناعة الكلام : قد يروم الواحد منهم ، إثبات معنى من المعانى ، أو نفيه عن إنسان ، فلا يؤدى ذلك بالطريق الصريح ، المتعارف عليه ، وإنما يجنح إلى طريق الكناية ، وبدل أن يجعل المعنى فى المتحدث عنه مباشرة ، نلفيه يجعله فى شىء يشتمل عليه ، ويتلبس به ، وبذلك يتوصل إلى ما يريد من الإثبات أو النفى ، لا من طريق ظاهر مكشوف ، بل من طريق يخفى ، ومسلك يدق ، وذلك أفخم للكلام ، وأدعى لظهور فضله ..

فالشاعر « زياد الأعجم » : أراد أن يثبت الخلال الثلاث للممدوح ، فترك سبيل التصريح عن عمد وإصرار ، وقصد نازعا إلى الكناية ، وجعل كون الخلال الثلاث فى القبة التى نصبت عليه : كناية عن تحققها فيه ، لأن تلك الصفات تتطلب محلا تقوم به ، لاستحالة قيامها بنفسها ، ولما كانت القبة لا تصلح لأن تكون محلا لهذه الخصال ، كان ذلك إشارة لإثباتها لصاحب القبة ، لأنه إذا أُثبت الأمر الذى لا يقوم بنفسه ، فى مكان الرجل وحيّزه ، فقد أُثبت له بالطريق الأولى ..

ومن ذلك قول « الشنفرى » :

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت فى الملامة حلت

التعبير يتضمن كناية عن نسبة ، والنسبة هنا منفية لا مثبتة ، لأنه إذا نفى اللوم عن بيت المرأة : فقد نفاه عنها بالطريق الأبلغ ، وهذا ما يتوخاه الشاعر ، فهى امرأة بعيدة عن المذمة والملام ، متحصنة بالخلق والعفاف ، فالنسبة المراد إثباتها ، وهى نفى اللوم عن المرأة ، لم ترد فى السياق ، مصرحا بها ، وإنما ذكر فى الأسلوب ما يدل عليها ، وهو نفى اللوم عن البيت الذى تحل فيه ، ومن ثم ، يرتقى الذهن إلى المعنى المقصود ، وهو نفى اللوم عن المرأة ذاتها .. وإنما عبّر الشاعر بقوله : « يبيت » دون « يظل » : لأن الليل مسرح الفجور ، ومسرب الآثام ..

ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ..﴾ .. (الشورى : ١١) .. فالآية الكريمة نصت على نفى مثل المثل ، وهذا يتبعه فى الذهن نفى المثل ، على طريق الكناية ، وحينئذ يكون النص الجليل : كناية عن نفى المماثلة عن ذات الله – تبارك وتقدس – بصورة أبلغ .

ونسوق – هنا – كلاما دقيقا ، للعلامة الشيخ « محمد عبد الله دراز » رحمه الله ، وغفر له .. فقد كتب معلقا على الآية :

« ولو رجعت إلى نفسك قليلا ، لرأيت حرف الكاف فى قوله : ﴿ليس كمثله شيء ..﴾ : فى موقعه ، محتفظا بقوة دلالته ، قائما بقسط جليل من المعنى المقصود فى جملته ، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى ..

فلو قيل : « ليس مثلَه شيء .. » لكان ذلك نفيا للمثْل المكافئ ، وهو المثل التام المماثلة فحسب .. وإذا دبّ إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام ، أن لعل هناك رتبة ، لا تضارع رتبة الألوهية ، ولكنها تليها ، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء ، أو للكواكب وقوى الطبيعة ، أو للجن والأوثان والكهان ، فيكون لهم بالإله الحق شبه ما فى قدرته أو علمه ، فكان وضع هذا الحرف فى الكلام : إقصاء للعالم كله عن المماثلة ، وعما يشبه المماثلة ، وما يدنو منها .. كأنه قيل : ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثْلاً لله ، فضلا عن أن يكون له مثْلا على الحقيقة ، وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، على حد قوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ..﴾ .. (الإسراء : ١٧) .. نهيا عن يسير الأذى صريحا ، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى .. »[١] .

والشيخ العلامة – رحمه الله – يرد بهذا الاستنباط الذكى : على من زعم زيادة الكاف فى الآية ، إذ ينبغى أن ينزّه القرآن عن أن يكون فيه كلام زائد .

ومن الكناية عن النسبة : قول أبى نواس يمدح « الخصيب » أمير مصر :

فما جـازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

---

(١) النبأ العظيم ص ١٣٣ ..

ففى البيت كنايتان : إحداهما فى الشطرة الأولى ، والأخرى فى الثانية ، وهما كنايتان أريد بهما اختصاص الممدوح بالجود ، وقصره عليه .. وقد كان الشاعر حاذقا ماهرا فى إثبات ذلك ، حيث صاغه أدق صياغة ، فنكّر الجود فى الشطر الأول ، فشمل جميع أفراد الجود ، لأن النكرة فى سياق النفى تعم ، ثم نفى أن يتعدى الجودُ ممدوحه ، ويحل فى مكان غير مكانه ، ومن ثم لا يكون هناك شىء من الجود ، عند غير الممدوح ، وبذلك يثبت له الجود كله ، ويصبح مقصورا عليه .. ثم نراه فى الشطر الثانى : يعرف الجود باللام المفيدة للعموم ، ثم يجعله حالا فى ذات المكان الذى يحل فيه الممدوح ، وبذلك دلّ على اختصاصه به ، على أبلغ وجه وآكده ..

هذا ، وأمثلة هذا اللون من الكناية ، كثيرة متنوعة ، وتجدها مبسوطة منثورة ، فى كتب الأدب العربى .. فارجع إليها – إن شئت – .

النوع الثالث :
الكناية المراد بها موصوف

وضابطه المميز له : أن يصرح فى الأسلوب ، بالصفة ، وبالنسبة ، ويطوى ذكر الموصوف المطلوب بالكناية ، على أن يصرح فى مكانه بصفة أو أوصاف تدل عليه وإليك أمثلة تجلى ذلك وتوضحه :

قال شوقى متحدثا عن جمال العربية ولطفها :

إن الذى ملأ اللغـات محاسنا جعل الجمال وسره فى الضاد

فقد كنى بقوله : (الضاد) عن اللغة العربية ، لأن حرف الضاد من خصائصها التى تدل عليها ، ولا تشترك معها فيه لغة أخرى . وهى – كما نرى – كناية عن موصوف .. بل إن الشطرة الأولى من البيت : تضمنت كناية بارعة ، فقد كنى بقوله: «إن الذى ملأ اللغات محاسنا» : عن موصوف، هو الله جل جلاله .. وهكذا نجد بيت «أمير الشعراء» يحمل فى تضاعيفه ، كنايتين رشيقتين ، كل واحدة منهما كناية عن موصوف.. وتلكم من إبداعات «شوقى» التى تأخذ بالألباب..

ويقول الله عز وجل : ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين﴾ .. (الزخرف : ١٧ – ١٨) .

وبقدر من التأمل : نلمح فى الآية الأخيرة ، كناية عن موصوف ، هو المرأة ، لأن هذين الأمرين : التنشئة فى الزينة والترف ، وعدم القدرة على الإبانة فى الجدال ، من صفات ربات الحجال ..

والنص السابق جزء من مقطع قرآنى ، يرد على المشركين تصوراتهم الحمقاء ، فى أن الملائكة بنات الله – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – ثم يتعجب السياق

منهم ، إذ كيف يجعلون لله البنات ، وهم يضيقون بهن ذرعا ؟ فهل اختصهم ربهم بالبنين ، واتخذ لنفسه الإناث ؟ ألاساء ما يحكمون !! ﴿وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ...﴾ (الزخرف : ١٥ – ١٦) ..

وقال الله تعالى : ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر ...﴾ (القمر : ١٣) ..

فقد كنى بالألواح والدسر عن السفينة ، لأن مجموع الأمرين : وصف مختص بالسفينة ، منه تنشأ ، وبه تتكون ، إذ المراد بالدسر : المسامير التى تشد بها الألواح .. والكناية – هنا – عن موصوف ..

وقال أحد الشعراء :

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى مشغوفة بمواطـــن الكتمان

فقد كنى الشاعر بقوله : « بمواطن الكتمان » : عن موصوف ، وهى القلوب التى تختزن الأسرار ، ولا يعلم أحد ما يختلج فيها ..

ويقول أمير الشعراء « أحمد شوقى » :

يا ابنة اليمّ ما أبوك بخيل ماله مولعـا بمنع وحبس

ففى الشطرة الأولى من البيت كنايتان ، أولاهما فى قوله : « يا ابنة اليمّ » ، كناية عن موصوف ، هو السفينة .. وثانيهما فى قوله : « ما أبوك بخيل » ، كناية عن موصوف ، هو البحر ..

وقال المتنبى يمدح سيف الدولة ، وقد ظفر ببنى كلاب :

فمساهـم وبسطهـم حرير وصبحهم وبسطهـم تراب
ومن فى كفه منهم قنـاة كمن فى كفه منهم خضاب

وقد اجتمع فى هذين البيتين نوعان من الكناية : فالبيت الأول تضمن كنايتين عن صفة ، إحداهما فى قوله : « وبسطهم حرير » ، فهى كناية عن السيادة والعزة ، والثانية فى قوله : « وبسطهم تراب » ، فهى كناية عن المهانة والذلة ..

أما البيت الثانى ، فقد تزين بكنايتين عن موصوف ، إحداهما فى قوله : « ومن فى كفه منهم قناة » : فهى كناية عن الرجل ، والثانية فى قوله : « مَنْ فى كفه منهم خضاب » : فهى كناية عن المرأة ..

والمعنى : أن سيف الدولة فاجأ بنى كلاب وقت الصباح ، وهم سادة أعزاء ، فما أتى المساء حتى انهزموا ، وصاروا ضعافا أذلاء ، حتى غدا الرجل منهم والمرأة بمنزلة سواء ..

التعريض

من حق البلاغة العربية : أن تتسامى معتزة ومفتخرة ، بانتساب رجل مثل « عبد القاهر الجرجانى » إليها ، فقد كان مورده فيها موردا عذبا صافيا ، ولم يشأ أن يفقد التراكيب سماحتها وإشراقها ، ومن ثم ، رأيناه يتناول الأساليب ، ويستنبط منها لمحاته وشوارده ، بعيدا عن التكلف والتعسف . ولا أدل على ذلك : من أن نظرته الموسوعية ، قد أبت إلا أن تعتبر الكناية والتعريض ، والرمز والإشارة والتلويح : ألفاظا مترادفة على معنى واحد ، تضييقا لشقة الخلاف ، ونأيا عن الإغراق ، فى التقسيمات والتفريعات ، والأجناس والفصول ، مما يطمس رواء البلاغة ، ويحيلها إلى الغاز ومعميات ..

لكن قد خلف من بعده خلف ، تنكبوا الصراط السوى ، واستغلق على أيديهم الأمر الجلى ، وابتدعوا تقسيمات أخرى للكناية ، غير تلكم التى أشرنا إليها آنفا ، أعنى أن تكون كناية عن صفة ، أو موصوف ، أو نسبة ..

وقد كان الإمام السكاكى : أول من تولى كبر هذا الابتداع التقسيمى ، فإذا هو يعاود الجولة ، ويتناول الكناية بتقسيم مستحدث جديد ، ويفرع منها : أربعة أنواع ، هى : « التعريض » ، «التلويح» ، «الرمز» ، « الإيماء والإشارة .. » ..

ونحن – من جانبنا – سوف نضرب صفحا ، عن هذا التقسيم السكاكى ، الذى وقع المتأخرون – بسببه – فى تخبط مربك ، وهم يتناولون هذه الأنواع ، لأنهم عجزوا عن استيعاب المنهج السكاكى ، ولم يستطيعوا أن يفروا فريه ، وهم يأخذون بأعنّة الصور الأسلوبية ، ليكتنهوا أسرارها ، ويستظهروا خفاياها ..

نقول : إننا سنغض الطرف عن هذا كله ، وتناول فن التعريض ، كما ورد فى اللغة والأدب : صورة بلاغية مرموقة ، تأخذ بالألباب .

التعريض فى لسان اللغة : ضد التصريح ، يقال : عرض لفلان وبفلان : إذا تكلم بكلام وهو يعنيه ، ومنه المعاريض فى الكلام ، ومن مأثوراتهم : « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب .. » .. أرادوا : أن المعاريض فيها سعة وفسحة ، عن قصد الكذب وتعمده ، لأن كلمة « المعاريض » : هى جمع « معراض » ، ومن معانيها : الستر والتغطية ، ولا شك أن المعاريض – بهذا المفهوم – تبعد الإنسان عن التورط فى حمأة الكذب ...

أما التعريض فى الاصطلاح فهو : « المعنى الحاصل عند اللفظ لابه » .. فقولهم : « المعنى الحاصل عند اللفظ » : شامل للحقيقة والمجاز والكناية . وقولهم : « لابه » : مخرج لها جميعا ، لأن الحقيقة والمجاز والكناية : يُدل عليها بالألفاظ ، أما التعريض فهو داخل بهذا القيد : « لابه » ، لأنه حاصل بغير اللفظ ، وهو السياق وقرائن الأحوال ...

ومن هذا المنظور : يكون التعريض فنّا مباينا للحقيقة والمجاز والكناية ..

ومن أمثلة التعريض : قوله تعالى يحكى عن إبراهيم وقومه : ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون ..﴾ .. (الأنبياء : ٦٢ – ٦٣) ..

فقول إبراهيم : « فاسألوهم إن كانوا ينطقون .. » : إنما يقصد من ورائه : التعريض بجهلهم وغبائهم ، وضعف عقولهم ، إذ كيف يخضعون لأصم أبكم ، لا يسمع ولا يبين ، ولا يملك من الأمر شيئا ؟ فهل مثل هذا : يصلح أن يكون معبودا وشريكا ، لمن بيده الخلق والأمر ؟

هذا المعنى الضخم الكبير : لم يُدل عليه باللفظ ، ولكنه فهم من خلال السياق ، وقرائن الحال ..

ومن أمثلة التعريض : قوله تعالى : ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك..﴾ .. (المائدة : ١١٦) ..

فالنص الكريم السابق : لا يراد منه مدلول الألفاظ والعبارات ، لأن عيسى – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – لم يحدث منه أن أمر الناس ، بعبادته هو وأمه من دون الله ، والله جل شأنه يعلم ذلك ، فلا تقصد من السؤال حقيقته ، وإنما المراد منه التعريض بهؤلاء الأشقياء (النصارى) ، لأنهم افتروا على ابن مريم ، هذا الافتراء البغيض ، الذى سيتبرأ منه روح الله وكلمته ، على رءوس الأشهاد يوم القيامة : ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ..﴾ .. (المائدة : ١١٧) .. وفى ذلك تبكيت وتقريع لأولئكم اللئام ، الذين اتهموا عيسى ظلما وزورا ، فالتعريض باد فى النص الكريم : من خلال السياق ، وقرائن الحال ، وإنما صيغ الحوار بأسلوب الفعل الماضى ، وهو لما يحدث ، لتحقق وقوعه ، فهو سيتم – حتما – يوم يقوم الناس لله رب العالمين ، ومن ثم ، اعتبر كأنه وقع فعلا ، على حد قوله تعالى :

﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه ..﴾ .. (النحل : ١) .

ومن أمثلة التعريض : قوله تعالى : ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ ... (المؤمنون : ١١٥) .. ويلاحظ – هنا –أن الاستفهام لا يقصد لذاته ، بل يراد منه الإنكار والتوبيخ ، فهو يعرّض بالكفار الحمقى ، لأنهم يجحدون البعث ، ويرفضون الإيمان بيوم النشور ، ولو كان لديهم مسكة من عقل وروية ، ما ولغوا فى الكفر هذا الولوغ البين ، ولآمنوا بالمعاد الأخروى ...

ومن أمثلة التعريض : ما روى أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة ، فقالت : أشكو إليك قلة الفأر فى بيتى .. فقال : ما أحسن ما ورث عن حاجتها ، املئوا بيتها خبزا وسمنا ولحما ...

ومثله : ما روى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، مشت جرذان[1] بيتى على العصيّ ، فقال لها : ألطفت فى السؤال ، لا جرم لأردّنّها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حبّا .. فقد أحسنت هذه المرأة العجوز : عرض حاجتها ، وصاغت ذلك فى أسلوب تعريضى جميل ، وقد فهم سليمان ما ترمى إليه ، لا من اللفظ ، بل من حالها ، وطريقة إخبارها ، وتصديها له ، وكونه مقصودا ، وقدرته على إغاثة الملهوفين .. وذلك كله هو « السياق » ، فلو أن هذه الأقوال ، وأمثالها ، قد صدرت من غير محتاج ، أو كان المخاطب بها ، ليس أهلا لأن يقصد لقضاء الحاجات ، لكانت هذه الأقوال محمولة على الحقيقة ، ولم تكن من قبيل التعريض فى شىء ...

ومن ألوان التعريض : قول الشميذر الحارثى :

بنى عمنا لا تذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغُمَيْر القوافيا

فلا يراد من البيت : نهىُ المخاطبين عن قرض الشعر ونظمه ، بل يراد تذكيرهم بما حدث لهم فى ذلك الموضع (الغمير) : من قتل أشرافهم ، وانتصار قوم الشاعر عليهم ، فلا يحق لهم أن يفتخروا بعد تلك الموقعة ، فقوله : « لا تذكروا الشعر » : ليس المراد منه الأبيات الشعرية ، بل المراد : لا تفخروا بعد ما حدث لكم ما حدث .. وهذا المعنى تعريضى ، دُلّ عليه بالسياق ، وقرائن الحال ..

ومن هنا يعلم : أن التعريض مباين للحقيقة والمجاز والكناية ، من حيث إنه مدلول للسياق وقرائن الأحوال ، ولا يُدَل عليه بالألفاظ ، وكذلك هو يختلف عنها ، من جهة أنه مختص بالمركبات ، ولا يرد فى الكلمات المفردة ، فلا يقال : هذه الكلمة تعريض ، كما يقال : هذه الكلمة حقيقة ، أو مجاز ، أو كناية ، والسر فى ذلك – كما أشرنا – أن دلالة التعريض من جهة السياق وقرائن الحال ، وتلك ناحية لا يستقل بها اللفظ المفرد ، بل إنها تنشأ من جهة التركيب ..

---

(١) الجرذان بكسر الجيم : جمع جُرَذ بضم الجيم وهو الفأر الذكر ..

كذلك « التعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالتها من حيث اللفظ ، بخلاف التعريض ، فإن دلالته من جهة القرينة ، ولذا كان التعريض أخص من الكناية ، فكل تعريض كناية ، وليس العكس .. »[١] ..

(١) الطراز ٣٩٧/١ .

جمال الكناية

يقول كثير من الناس : « فلان اصفر وجهه » يكنون بذلك من الخوف ، « فلان قطّب جبينه » كناية عن الغضب ، « احمر وجهه » كناية عن الخجل .. وهذه الكنايات إذا تأملنا فيها : وجدنا أن الذهن ينتقل فيها من المعنى الأصلى إلى اللازم ، لارتباطهما ذهنيا ، وليس فيها جمال تأثير وروعة إمتاع ، ذلك أن الكناية الأدبية بمعناها الصحيح : هى التى تمتع القارئ والسامع ، بما احتشد لها من بالغ التأثير والإقناع ..

فالكناية مظهر من مظاهر التألق البيانى ، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه ، وصفت قريحته ، لأنها تعطينا الحقيقة ، مصحوبة بدليلها ، وترسم للمعنوى ، صورة حسية رائعة ، فى إيجاز دقيق ، ولفظ رشيق .. انظر إلى قول الله – جل ثناؤه – :

﴿وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم ..﴾ .. (نوح : ٧) .. فإنك واجد أن هذه الكناية قد رسمت للشىء المعنوى ، وهو عدم الاستماع ، وإلغاء النظر : صورة حسية ، وهى صورة القوم يضعون أصابعهم فى آذانهم ، وثيابهم تغطى وجوههم .. وهذه الكناية النابهة : قد أثرت فى النفس تأثيرا قويا ، بعرض المعنوى فى إطار حسى ، وصارت كأنها برهان مادى ، يحمل الإقناع ، ويسوق الدليل ..

ثم تأمل قول المتنبى فى مدح كافور :

إن فى ثوبك الذى المجد فيه لضيـــاء يزرى بكل ضيـاء

فقد أراد أن يثبت المجد لكافور ، فترك التصريح به ، وأثبته لشىء يتعلق بكافور وهو الثوب ، وفى هذا تصوير لملازمة المجد له ، ولصوقه به ، بطريق كنائى ، لا يرقى إليه التعبير الصريح ، كأن يقال : « إنه ماجد » .

على أن من الأسرار الفنية للكناية : أنها تتيح للأديب أن يعبر عما يجول فى خاطره : دون أن يعرض نفسه لمغبّة التصريح ، وذلك كما نرى فى قول المتنبى يمدح كافورا ، ويعرّض بسيف الدولة :

فلو كان مـــا بـى من حبيب مقنع عذرت ولكـــن من حبيب معمم
رمى واتقى رمىى ومن دون ما اتقى هـوى كاسر كفى وقوسى وأسهمى
إذا ساء فعل المـــرء ســاءت ظنونه وصدق مـــا يعتـــاده من توهـــم

فإن المتنبى كنى عن المرأة : « بالحبيب المقنع » ، وكنى عن سيف الدولة : « بالحبيب المعمم » ، ثم وصفه بالغدر ، الذى يدعى أنه من شيم النساء ، ثم رماه بالجبن ، لأنه يرمى ويتقى الرمى بالاستتار خلف غيره .. والمتنبى لا يجازى « سيف الدولة » على الشر بمثله ، لأنه لا يزال يحمل له هوى قديما ، يكسر كفه وقوسه وأسهمه ، إذا حاول النضال .. ثم وصفه بأنه سيئ الظن بأصدقائه ، لأن فعله سيىء معهم .. فانظر كيف نال المتنبى من سيف الدولة هذا النيل البالغ ، دون أن يذكر من اسمه حرفا ، ولكن تعريضه به – على هذه الطريقة – كان فنا أدبيا مثيرا رائعا .. ومن جمال الكناية : أنها تتيح للأديب ، أن يعبرّ عما لا يؤذى السامع ، ولا يوقعه فى حرج ، ومثال ذلك :

« أن الرشيد كان يجلس مع الفضل بن الربيع ، ثم مرّ رجل يحمل حزمة خيزران ، فسأل الفضلَ : ماذا يحمل الرجل ؟ فقال : عروق الرماح يا أمير المؤمنين » .. فقد عدل الفضل عن كلمة « الخيزران » ، لأن أم الرشيد : كانت تسمى بهذا الاسم ..

مما سبق يبرز لنا جمال الكناية ، وأنه يتمثل فيما يلى :

١ – أنها تعطينا مع الحكم دليله ، والبرهان عليه ، كما أنها تعرض المعنوى فى صورة حسية مع الإيجاز ، كما تحدث للنفس إقناعا ، وللوجدان إمتاعا .

٢ – أنها تمكن الأديب : أن يعبّر عما يقصد ، دون أن يكشف أمره ، أو يُفتضح شأنه ، فيؤاخذ بما انزلق إليه ..

٣ – أنها تتيح للأديب : أن يتحدث عما يُستهجن التصريح به ، دون خدش أو إسفاف ..

* * *

اختلاف الكناية باختلاف البيئات

كل بيئة تختلف عن الأخرى ، وكل عصر يختلف عن غيره ، والأديب يعبر عما فى الحياة من خلال وجدانه وأحاسيسه ، والكناية تعبير وجدانى يختلف من بيئة إلى أخرى .. فمثلا فى مجال التعبيرعن الخبرة بالحياة : نجد البيئة الصحراوية تقول : « فلان يعرف من أين تؤكل الكتف » ، وفى البيئة الشاطئية والساحلية يقولون : « فلان يعرف كيف تُرمى الشباك » .. وفى التعبير عن الكرم نجد البيئة الصحراوية ، تكنى عنه وتقول : « فلان جبان الكلب » أو « مهزول الفصيل » : لأن العربى كان ينحر ناقته لضيفه ، ويترك فصيلها – ابنها الصغير – فيعتريه الهزال ، لانقطاعه عن لبن الأم .. وفى البيئة الحضرية يكنون عن الكرم بقولهم : « فلان حجرة استقباله لا تغلق » ، « بابه دائما مفتوح » .. وعن التنكر وانقطاع المودة : نجد البيئة الباردة تقول : « تجمد الجليد بينهم » ، « رمى القفاز فى وجهه » بينما كان العربى القديم يقول : « قلب له ظهر المجن » : أى الترس .. وعن الثراء والغنى : عبّر الرعاة بقولهم: « لا تُعد قطعان بقره.. » ، وفى البيئة الحضرية : نستمع إلى قوله تعالى : ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ..﴾ .. (القصص : ٧٦) ..

وإن التطور الحضارى الذى نعيشه : قد غير كثيرا من الكنايات ، فأصبحت غير مستساغة فى عصرنا ، فمثلا كان يكنى عن الكرم : « بكثرة الرماد » ، لأنه يلزم من كثرة الرماد ، كثرة الإحراق ، ومن كثرة الإحراق كثرة الطبخ ، ومن كثرة الطبخ كثرة الآكلين .. أما اليوم فيقال فى التعبير عن الكرم : « فلان كثير الاستهلاك للغاز » .. وكان العرب يكنون عن طول الليل بقولهم : « ليل

بطئ الكواكب » ، أما اليوم فيقال : « إن عقارب الساعة لا تتحرك .. » .. وهكذا نرى الكناية تختلف من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى بيئة ، لأنها – فى الحقيقة – تعبير عن إحساس الأديب ، وترجمة لروح عصره ..